جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة : الأولى

المادة : الأدب العربي قبل الإسلام

عنوان المحاضرة : مفهوم مصطلحي الادب والجاهلية

مدرس المادة : أ.م.د. بشّار سَعْدي إسْمَاعِيل

الأدب لغة:

جاء في معاجم اللغة أن الأدب هو الذي يتأدب به الأديبُ من الناس ، سُمّي أدبا لأنه يأدِبُ الناس إلى المَحامد وينهاهم عن المقابح . وأصل الأدْبِ الدُّعاءُ ، ومنه قيل للصّنِيع يُدْعَى إليه الناسُ : مَدْعاةٌ ومَأدُبَةٌ .

والأَدَبُ : أَدَبُ النّفْسِ والدّرْسِ . والأَدَبُ : الظّرْفُ وحُسْنُ التّناوُلِ... وأدّبه فتأدّب : عَلّمه

كلمة أدب مفهوما :

تعد كلمة ادب واحدة من الكلمات التي تطور معناها بتطور الحياة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى دور المدنية والحضارة. وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين، سواء أكان شعراً ام نثراً.

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي ننقّب في دواوين شعراء ذلك العصر عن الكلمة فيه فإننا لا نجدها تجري فيه على ألسنة شعرائه بهذا المعنى الذي نقصده نحن اليوم باستعمالنا لهذه الكلمة (أي: كلمة أدب) وإنما نجد على لسان أحد شعراء ذلك العصر استعمال لفظة آدب بمعنى الداعي إلى الطعام، وقد جاء هذا على لسان الشاعر طَرَفَة بن العبد إذ يقول:

نحن في المَشْتاةِ ندعو الجَفَلى لا ترى الآدبَ فينا يَنْتَقِر

وليس وراء بيت طرفة بن العبد هذا أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر.

وفي عصر صدر الإسلام نجدها تستعمل على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي في الحديث النبوي الشريف:((أدبني ربي فأحسن تأديبي))، إلى جانب استعمالها في المعنى نفسه على لسان شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة الغَنوي إذ يقول:

لا يمنعُ الناسُ منّي ما أردتُ ولا أعطيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذَا أدبا

وقد تكون الكلمة قد استعملت في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقي، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن. وقد ذهب (نالينو) وهو احد المستشرقين الذين حاولوا تفسير تطور كلمة أدب فرأى أنها استعملت في الجاهلية بمعنى السّنة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب كلمة (دأب) قائلاً: إن العرب جمعوا دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم

عادوا فتوهموا أن آداباً جمع أدب فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السّنة والسيرة، ودلّوا بها على محاسن الأخلاق والشّيم. وهو فرض بعيد وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستعمل أولاً في معنى حسي حقيقي ثم تخرج منه إلى معنى ذهني مجازي.

وعندما نصل إلى العصر الأموي نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقي التهذيبي وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً وهو معنى تعليمي، فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى (بالمؤدبين) الذين كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية، فكانوا يلقّنونهم الشعر والخطب واخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام وأتاح هذا الاستعمال الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ على الشريعة وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي الشريف وتفسير القرآن الكريم.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان في استعمال الكلمة فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضروباً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم ((الأدب الصغير)) و ((الأدب الكبير)) وبهذا المعنى نفسه سمى أبو تمام (ت ٢٣١هـ) الباب الثالث من ديوان الحماسة الذي جمع فيه مختارات من طرائف الشعر باسم ((باب الأدب)) وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذي عقده البخاري (ت ٢٥٦هـ) في مؤلفه المشهور في الحديث، والمعروف باسم (الجامع الصحيح) كما ينطبق على كتاب الأدب ، الذي صنفه ابن المعتز (٢٩٦هـ) .

وفي القرنين الثاني والثالث للهجرة، وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتب أدب مثل (البيان والتبيين) للجاحظ (ت٢٥٥هـ) وهو كتاب يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة ومثله كتاب الكامل في اللغة والأدب للمبرد (ت ٢٨٦ هـ) وقد وجّه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة كما صنع الجاحظ وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التي ارتقت صناعتها في تلك العصور.

ومما ألف في الأدب بهذا المعنى كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) و كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربة الأندلسي (٣٢٨هـ) و (زهر الآداب وثمر الألباب) للحصري (ت ٤٥٣هـ) .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي وبهذا المعنى الواسع نجدها عند إخوان الصفا في القرن الرابع للهجرة، فقد دلوا بها في رسائلهم إلى جانب علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات. ولا نصل إلى ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية، فهي تشمل جميع الوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة، ومن ثم قال: ((الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف)) .

كذلك فقد كان من بين ما دلت عليه كلمة أدب منذ القرن الثالث للهجرة على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس، وقد ألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل (أدب

الكاتب) لابن قتيبة و(أدب النديم) لكشاجم (ت ٣٥٠هـ) وتوالت كتب مختلفة في (أدب القاضي) و(أدب الوزير) وأخرى في الحديث و(أدب الطعام) و(أدب المعاشرة) و(أدب السفر) إلى غير ذلك. على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار.

وقد اخذت الكلمة منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي تدل على معنيين: معنى عام يطلق على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ، ومهما يكن اسلوبه سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذي لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعاني، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلاً مؤثراً في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتي الشعر وفنون النثر الأدبية مثل: الخطابة، والقصص، والأمثال، والمقامات والمسرحيات.

الجاهلية :

يرى أكثر الباحثين أن كلمة (الجاهلية) التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضدّ العلم ونقيضه، فالكثير من المكيين كانوا كاتبين وقارئين، وعند مجيء الاسلام كان صفوة رجال قريش كتابا للوحي مثل: عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب، كرم الله وجهه ورضي عنه، وعثمان بن عفان، رضي الله عنه، وغيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السّفه والغضب والنزق، فهي ضدُّ الحِلْم . فكلمة الجاهلية تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجلّ وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف ، والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميّة والطيش والغضب فقد قال تعالى في سورة البقرة : قالوا أتتخذنا هُزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . وفي سورة الفرقان : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

وفي الحديث النبوي الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرّ وقد عيّر رجلا بأمه : إنك امرؤ فيك جاهلية. وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جَهْل الجاهلينا

وواضح في هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استعملت من قديم للدلالة على السّفه والطيش والحمق. ويغلب على ظن الألوسيّ صاحب كتاب بلوغ الأرب أن لفظ (الجاهلية) لفظ حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة النبوية الشريفة. وفي ظنه حظّ من الصواب غير يسير، فقد وردت الكلمة في القرآن الكريم أربع مرات منها قوله تعالى في نهي النساء عن التبرّج في سورة الأحزاب: (ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى)، وقوله تعالى في سورة آل عمران: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية)، وقوله تعالى في سورة المائدة: (افحكم الجاهلية يبتغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)، وقوله تعالى في سورة الفتح : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) .

ووردت في الحديث النبوي الشريف أكثر من سبع مرات ، ودلالتها تتردد بين معنيين: المدة التي سبقت الإسلام والمفاهيم والعادات المنبوذة التي نسخها الإسلام.

وحدّد ابن منظور (ت ٧١١هـ) صاحب معجم لسان العرب معناها بقوله: ((هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه وتعالى ونبوة رسوله الكريم، وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبّر وغير ذلك)).

فالجاهلية أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أخرى على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات.

وإذا كان في تحديد معنى الجاهلية بعض الصعوبة، فتحديد زمانها أصعب فقد حدّده كثير من المفسّرين بأنّه الزمان الفاصل بين الرسولين الكريمين عيسى ومحمّد عليهما السلام وبهذا التحديد أخذ الألوسيّ ودائرة المعارف الاسلامية. وذهب آخرون إلى أن بداية الجاهلية لا يمكن تحديدها لكن نهايتها هي ظهور الإسلام وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أنها في حدود قرن ونصف من آخر الزمان الذي سبق الإسلام .